

الوراثة والعادة عند أفلاطون وأرسطو

ووساطة الفارابي بينهما

بقلم ابراهيم بيومي مذكور

دكتور في الآداب والفلسفة

إن مشكلة الوراثة والعادة من المشاكل التي تشغل أذهان علماء الأخلاق والنفس والتربية إلى حد كبير . فهم يتساءلون : ألاخلاق كلها موروثية يأخذها الخلف عن السلف ، أم مكتسبة تنشأ وتنمو بالدربة والاعتقاد . وإذا صح أن الطفل يرث صفات آبائه وأجداده ، فعلى أى نظام يتم هذا التوارث ؟ وهل له قوانين ثابتة يعتد بها ؟ ثم إذا كنا نؤمن بالوراثة الخلقية ، فما قيمة وسائل التربية والتعليم ؟ وما مقدار نفوذها في الإصلاح والتقويم ؟

لأنحاول اليوم أن ندرس هذا الموضوع من جهة علم النفس التجريبي ، ولا من ناحية البحوث الحديثة الخاصة بالطبائع في أصولها وتكوينها وطريق علاجها ، وإنما نريد أن ندلى ببعض ملاحظات تاريخية قد تعيننا على فهم نقطة من أدق نقط علم النفس والتربية .

اختلف الناس ولا يزالون مختلفين في أمر الوراثة والعادة وتعارضهما ، ومقدار تغلب إحداها على الأخرى . وقد يما قرروا أن الولد سر آية ؛ كما قالوا : لكل امرئ من دهره ما تعودا . فمن مناد بالوراثة يعلى شأنها مدعياً أن الفضيلة فطرية لا مكتسبة ، وأن الوعاظ والمصلحين لا يقوون على انتزاع خلق سبي وتكوين آخر صالح ؛ ومن معتد بالعادة يظن أنها المنبع الوحيد لمختلف الطبائع والخصال ، والعلاج الناجع لتقويمها . ومشكلة كهذه ما كانت لتخفى على فلاسفة الإغريق ، وخاصة أفلاطون وأرسطو اللذين يعتنقان ، فيما يظهر ، رأيين متباينين في هذا الصدد . فينا يرى الأول أن للوراثة قوة لا تسمو إليها العادة ،

وأن الغرائز غير قابلة للتغيير ، إذا بالثاني يعان أن الأخلاق كلها مكتسبة ، وأن العادة أهم عامل في تكوين السجايا والخلال . لاحظ الفارابي هذا الخلاف الذي لم ينتبه اليه كثير من الباحثين السابقين ، وعرضه في دقة وأمانة تامة ، ولما كان يعتقد أن الفلسفة واحدة ، وأنه يجب أن يتفق الفلاسفة فيما بينهم ، اجتهد في أن يوفق بين الفيلسوفين الاغريقين في رسالته المسماة : كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس (١) . وهانحن أولام تاركوه يشرح هذه المسألة التاريخية ، ومبينون إلى أي حد نجح في مهمة التوفيق التي حاولها .

يقول في رسالته الآتفة الذكر : إن أفلاطون يصرح في كتاب السياسة (la République) وفي كتاب بوليطيا (le Politique) خاصة بأن الطبع يغلب العادة ، وأن الكهول حيثما طبعوا على خلق ما يعسر زوالهم عنه ، وأنهم متى قصدوا زوال ذلك الخلق عنهم ازدادوا فيه تماديا . ويأتى على ذلك بمثال من الطريق إذا نبت فيه الدغل والحشيش والشجر معوجة متى قصد خلاء الطريق منها أو ميل الشجر إلى جانب آخر ، فانها إذا خليت وسنيلها أخذت من الطريق أكثر مما كانت أخذت من قبل (٢) .

على العكس من ذلك ، يصرح أرسطو في كتاب نيقوماخيا (l'Ethique à Nicomaque) أن الأخلاق كلها عادات تتغير ، وأنه ليس شيء منها بالطبع ، وأن الانسان يمكنه أن ينتقل من كل واحد منها إلى غيره بالاعتiad والدربة (٣) . لا يتردد القاريء لهذه النصوص في أن يؤكد أنها تترجم عن نظريتين

(١) هذه الرسالة هي الجزء الأول من المجموعة التي طبعها ديتريتشى تحت العنوان الآتى : الثمررة المرضية في بعض الرسائل الفارابية ، ليدن ، ١٨٩٠ ، وتوجد أيضا في مجموعة فلسفة أبى نصر الفارابي .

(٢) الفارابي ، الثمررة المرضية ، ص ١٦ - ١٧ . غنى عن البيان أن في أسلوب الفارابي شيئا من الاتواء تأبى علينا أمانة النقل تعديله .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦ - راجع أيضا في — Aristote, l'Ethique à Nic. II, 111, 4, V, 2

متضادتين ؛ غير أن الفارابي يعتقد أن هذا التضاد في الحقيقة صوري . وأن أفلاطون ، وإن نادى بالورثة ، لا ينكر ما للعادة من يد في اكتساب خلقها ، كما أن أرسطو الذي يعتز بالعادة لا ينفي الأخلاق الموروثة . ولئن بدا في لهجة أفلاطون تمسكه بالغرائز الفطرية ، ما ذاك إلا لأنه يدرس النظم السياسية التي تعتمد اعتمادا أساسيا على هذه الغرائز . إذ من الواضح أنه يصعب كثيرا استبدال نظام سياسي بآخر ، فللعادة في هذا المضمار أثر محدود . ومن الصعب كذلك أن نحاول إحلال خلق جديد محل خلق قديم موروث . ولكن هذه الصعوبة لا تلغى عمل العادة وأثرها في اكتساب الأخلاق المختلفة ؛ فبين العسير والممتع مرحلة لا يستهان بها وعلى هذا يعترف أفلاطون ، في رأى الفارابي ، بأن للعادة والتربية مجالا في الحياة السياسية والخلقية ، وإن كان يُعوّل التعويل كله على الاستعداد الطبيعي . وكل ما يحاول إثباته إنما هو صعوبة الانتقال من خلق موروث إلى خلق مكتسب (١) وأرسطو نفسه لا ينكر هذه الصعوبة وإن عد العادة أكبر سلاح في تكوين الأخلاق المختلفة . فكل خلق في ذاته قابل للتحويل ولأن يستبدل به غيره ؛ ومع هذا قد نلاق أحيانا عناء كبيرا في إحلال خلق محل آخر . ولم يفت أرسطو أن يلاحظ ، في دقة ، أن اكتساب العادات يختلف باختلاف الأشخاص ؛ فبينما يكتسب شخص عادة ما بسهولة تامة إذا بالآخر يعز عليه اعتيادها . (٢)

فأفلاطون وأرسطو يناديان إذا بالورثة والعادة ، ويعتقدان أن التربية ناجعة في التخلق بالفضيلة والخلوص من الرذيلة . وليست الغرائز الفطرية التي ينادى بها أفلاطون بمجهولة لدى تلميذه ؛ كما أن العادة التي يستمسك بها التلميذ ليست مهمة لدى أستاذه . بهذا الحل استطاع الفارابي أن يقف موقفا وسطا بين الفيلسوفين الاغريقين ، وأن يقرب المسافة بينهما إزاء هذه المشكلة الدقيقة .

إذا بحثنا عن قيمة هذا التوفيق ومقدار نجاحه ، وجدنا أن أفلاطون الاجتماعي والأخلاق يعلق كبير الأهمية على الاستعدادات الفطرية ؛ فهو يحاول أن يدعم السياسة والأخلاق على أسس صيكلوجية . فمن الوجهة السياسية يرى أن تقسيم

(١) الفارابي ، الثمرة المرضية ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

العمل والطبقات الاجتماعية يجب أن تتلاءم، لأمع الحاجات المادية وحدها، بل مع صفات الأفراد المختلفة. فكل عمل من أعمال الجمعية يستلزم استعدادات خاصة. فحب المال لدى الصانع، والجرأة النيلية لدى الجندي، وبعد النظر والتفكير العميق لدى حامي المدينة، كل هذه تعتمد على صفات فطرية لا يستطيع أى نظام اجتماعى خلقها (١). ولا بد أن يتوافر فى الرؤساء السياسيين بوجه خاص صفات غريزية، عنى أفلاطون بسردها سردا مفصلا فى كتاب السياسة أو (الجمهورية) (٢). ومن الناحية الخلقية يعتقد أفلاطون كذلك أن الفضيلة محتاجة إلى طبائع أولية غير مكتسبة بالدرس والنظر. (٣) ويحدثنا فى إحدى محاوراته المسماة مينون - (Ménon) - سماها العرب مائن - عن معونة إلهية (conours divin) لا بد منها لاكتساب الفضائل (٤). ولسنا ندرى بالضبط ماذا يعنى بهذه المعونة الإلهية؛ العبارة فى ذاتها مبهمه وإن استعملها مؤسس الأكادى غير مرة؛ ويخيل لينا أنه يريد بها الاستعداد الفطرى (٥). وأن فيلسوفا يبنى نظرية المعرفة (la théorie de la connaissance) على أسس غريزية، ويعتقد أن التعلم ليس الا تذكرا لمعلومات عرفت من قبل (Réminiscence) فى عالم سابق لعالمنا هذا، لا يبدو غريبا منه أن يؤسس الفضيلة على دعائم موروثة. على أن أفلاطون يبالغ فى الاعتداد بالفطرة فى علم الأخلاق أكثر منه فى علم النفس؛ فهو يسمح للقضاة بأن يحكموا بالموت على كل شخص رأوه غير قابل للإصلاح، ويعلن أن الفضيلة التى تعتمد على العادة وحدها ليست إلا انقيادا آليا هو أشبه ما يكون بخضوع الأرقاء. (٦)

يبدو من هذا لأول وهلة أن أفلاطون يحارب العادة ويحمل عليها حملة شعواء،

(١) Platon, République, 455 b.

(٢) Ibid, 490.

(٣) Brochard, Etuder, r. 177

(٤) Platon, Ménon, 100 a.

(٥) Ed, Zeller, Die Philosophie der Griechen . . . , 11, I, 594

(٦) Platon, République, 410 d = Phédon, 82 a.

غير أنه لا يهاجم إلا العادة العمياء التي لا تستضيء بضوء الفلسفة والتفكير المنتظم. أما العادة الصحيحة النيرة فهي، في نظره، أساس تبنى عليه التربية والتثقيف. لذلك أخذ على نفسه أن يكون نظريات يداوجية عمادها العادات المتزنة. ونظرة إلى الجزء الثاني والثالث والسابع من كتاب الجمهورية، وإلى تحريرها في النواميس، وبخاصة الجزء السابع تحملنا على أن نعد أفلاطون بين كبار مربى التاريخ القديم. ومرب لا يعتقد نجاح العادة في مهمتها يناقض نفسه ويهدم أكبر عامل من عوامل دراسته. فلم يكن بدعا أن يجهد مربى الجمهورية نفسه في تنمية الغرائز التي ورثها الأطفال عن آبائهم، والتي تساعد على تنشئتهم تنشئة صالحة. وتليذ سقراط لا يستطيع أن ينكر أن الفضيلة ممكنة الا كتساب تنال بالدربة والمراة. نعم إنه يخالف أستاذه في بروتاجورا — Brota goras (أو فروطا غورس كما سماه العرب) حيث ينقض هذه النظرية؛ ولكن هذه المخالفة مؤقتة، وما هي إلا لحظة حتى يعود أفلاطون الى اثبات أن الفضيلة قابلة للتعلم مادامت موضوع علم مستقل بذاته. (١)

يد أن أرسطو - والحق يقال - هو أول فيلسوف أبان في جلاء أثر العادة في اكتساب الفضيلة، ودرس ذلك دراسة تطبيقية وتحليلية استنتج منها قوانين عامة فهو يقرر أن «العادة هي التي تنمي الفضائل وتمسكها من نفوسنا؛ فالمرء يصبح عادلا بتمسكه بالعدالة، وحكيما بتعلقه بالحكمة، وشجاعا بوقوفه مواقف الشجاعة» (٢)، لا شك في أن أفلاطون أرشد تلميذه إلى قيمة العادة في التربية، إلا أنه يرجع إلى التليذ الفضل في دراسة العادة، لأول مرة، دراسة نفسية وخلقية موسعة. فدراسته النفسية تدل على دقة وتعمق بالغين. وتحليله لبعض العادات الخلقية كان حليف الصواب في أغلب الأحيان. ورغبة أرسطو في رد الفضائل كلها إلى العادة تتفق مع مذهبه العام، فان من يعتمد أولا وبالذات على الوقائع والحوادث المحسوسة لا يؤمن كثيرا بالغريزة وقوتها. فذهب أرسطو الواقعي يسود في كل مكان: ففي

(١) Id., *Protagoras*, 316 d.

(٢) *Aristote, Ethique à Nicomaque*, 11, I, 3, 4.

الدائرة الصيكلوجية يحزم بأن المحسوسات أصل المعلومات العامة ومصدر تكوينها؛ والأخلاق في رأيه، لا تقل عن الطبيعة، في اعتمادها على الأفعال الملبوسة والأشياء المشاهدة. لذلك كانت فنا (art) ينمو ويضعف بنفس الوسائل والأسباب التي تؤثر في الفنون الأخرى (١). وعلى هذا هو أكبر فارق بين الأخلاق عند أرسطو وأفلاطون؛ فبينما يعتد الثاني بالغرائر اعتدادا كبيرا، إذا بالأول لا يعول عليها كثيرا. فالفطرة (l'innéisme) محدودة النفوذ في المذهب الأرسطي، سواء أكان ذلك في الأخلاق أم في علم النفس. وفي رأى أرسطو أن المرء يولد وفيه استعداد للخير كما أن فيه استعدادا للشر؛ ولكننا لا نستطيع أن نسعى واحداً من هذه الاستعدادات فضيلة أو رذيلة (٢).

وهنا يحق لنا أن نتساءل إذا كان أرسطو يؤمن بوجود استعدادات فطرية فكيف يلغى عملها؟. للاجابة عن هذا الاعتراض يلجأ الفارابي إلى فكرة القوة والفعل (l'acte et la puissance) التي هي من أعقد النقط في فلسفة أرسطو، والتي تدخل في نواحيها المختلفة دون أن تشرحها شرحا وافيا. يقول الفيلسوف العربي: «إن الطفل الذي نفسه تغد بالقوة ليس فيه شيء من الأخلاق بالفعل ولا من الصفات النفسانية. وبالجملية فإن كل ما فيه إنما هو بالقوة؛ ففيه تهيؤ لقبول الشيء وضده؛ ومهما اكتسب أحد الضدين يمكن زواله عن ذلك الضد المكتسب إلى ضده» (٣). فعقلية الطفل عند الفارابي ليست لوحا أملس خاليا من كل نقش أو صحيفة بيضاء لا أثر فيها؛ كلا بل على ذلك اللوح نقوش وفي هذه الصحيفة رسوم. بيد أن هذه النقوش غير واضحة، وهذه الرسوم شاحبة بحيث يمكن تغييرها وتبديلها بحسب الإرادة (٤). هي نقوش ورسوم في عالم القوة، فوجودها فرضي وحقائقها اعتبارية؛ ولا يمكنها أن تتجاوز أفقها هذا إلى عالم الفعل إلا بمؤثرات

Ibid., II 19, (١)

Ibid., 11, VI, 2 ; 3 VI, XI. (٢)

(٣) الثمرة المرضية، ص ١٧٠.

(٤) المصدر نفسه.

اخرى خارجية . هذا هو الحل الذى يتقدم به الفارابى ليحدد قوة الغرائز ومدلولها من الناحية النفسية بوجه عام وفي رأى أرسطو بوجه خاص . وهو حل خاطئ . فى جملة ؛ ذلك لأنه يعتبر الطفل صفحة غفلاً قابلة لكل ما يراد بها . ويكاد يقضى على الاستعدادات الفطرية ؛ فان الاستعداد الكامن فى عالم القوة أقرب الى العدم منه الى الوجود . نعم ان علم النفس التجريبي لم يصل بعد إلى أن يعين بالدقة الخصال الأولى لدى طفل ما ، غير ان هذه الخصال موجودة وتعارض أحيانا مع وسائل التربية والتعليم . هناك صفات فطرية قطعاً وثابتة بالفعل لا بالقوة ؛ وفى مقدورنا ان نبيين الكثير منها لدى مختلف الأطفال .

فالفارابى وإن اخذ بالاستعدادات الطبيعية التى نادى بها أفلاطون هو إلى مذهب أرسطو اميل ، وما صيكلوجية الخصال ، فى عرفه ، الا شبه بصيكلوجية المعرفة فكلنا يولد وهو مستعد لرؤية وفهم الأشياء الجزئية ، ولكن ذهنا فى أول لحظة نصل فيها إلى هذا العالم خال من كل فكرة عامة . كذلك يولد الطفل وفيه استعداد للتخلق بأى خلق أو تعود أية عادة ، دون أن يكون ذا خلق محدود أو عادة معينة ؛ وفى وسعنا أن نوجه استعداده حيث نريد . بل ، وأكثر من هذا ، الأخلاق المكتسبة - مثل المعلومات المكتسبة - تعادل فى رأى الفارابى الأخلاق الموروثة وقد يسميها أحيانا أخلاقاً موروثة ، إذا ما وصلت إلى درجة خاصة من الثبات والاستقرار ^(١) . فالعادة والتكرار تعمل فى علم الأخلاق ما تعمله الحواس فى علم النفس : الأولى تخلق فينا من عدم صفات جديدة ، والأخيرة هى سبيل تكوين أفكارنا العامة . وهكذا يقود المذهب التجريبي (l'empirisme) دائماً فى الأخلاق إلى مثل النتيجة التى يقود إليها فى علم النفس ، ومن العبث أن نحكم على آراء الفيلسوف الخلقية قبل أن نعرف نظرياته النفسية .

ابراهيم يوسى مذكور

دكتور فى الآداب والفلسفة